



ليس لدى بشار الأسد الذي عادت بعض الصحافة العربية إلى إطلاق صفة الرئيس عليه أدنى قلق بشأن إعادة تطبيع علاقاته مع العرب، بل إن هذا الملف لا يدخل في اهتماماته واهتمامات وزير خارجيته، وليد المعلم، لأن المسألة تحصيل حاصل، وهذه مشكلة العرب وليس مشكلته.

ينطلق الأسد في لا مبالاته هذه من فرضية بسيطة، تقول إنه ما دامت حكاية تحويل الثورة إلى حرب على الإرهاب انطلقت على أكبر الرؤوس في العالم، وإنه فرض عليهم قاعدة أنا أو الإرهاب، والتي صنعتها باحترافية عالية في أقبية أجهزته الأمنية، وما دام قد فعل ذلك تحت أعين أعلى أجهزة المخابرات العالمية وأنوفها، فإن قضية تعرض نظامه لمؤامرة كونية، شاركت بها دول الإقليم، يجب أن تمرّ على العرب، وإن على هؤلاء أن يبادروا من تلقاء أنفسهم للبحث عن طريقة لإعادة العلاقات مع نظامه، ويعرضوها عليه حتى يقرّ موافقته عليها.

ويستثمر الأسد، ونظامه، كل فرصة ومناسبة لبعث رسائل إلى الزعماء العرب، لذكرهم بخسارة رهاناتهم على إسقاطه، وتسامحه مع هذه السقطة الرهيبة، وأنه على الرغم من ذلك هو مستعد لتجاوز الأمر. ألم يوصي الوفد البرلماني الأردني بأن يوصلوا إلى الملك عبدالله الثاني أنه نسي الماضي ويتعلّم للمستقبل؟ لم يجد نائباً من الوفد، متوسط الذكاء، ليسأل: من يسامح من؟ وهل بلادنا هي التي طلبت من السوريين أن يثوروا على نظامك؟ ثم إنك دفعت بمليون لاجئ إلى بلادنا المنكحة والفقيرة، وارتخت من عبئهم، وما زلت تمنع عودتهم، وكنا ننتظر منك أن تشكر بلادنا على هذه الوقفة! ألم تقل سعادتك إن هؤلاء هربوا من الإرهابيين، وإن لا مشكلة لديك معهم؟

والواقع، إن من السهل على الأسد أن يتبحّج في المجالس، ويزاود على ضيوفه، فهو لاء القادمون إليه يعبرون عن انبهارهم بانتصاره، وعن جمال سوريا بعد الحرب الكونية عليها، وإن شعوب العرب وحكامهم هم الذين خانوه وخذلوه وتأمروا عليه.

ماذا يتوقعون أن يرد عليهم الأسد، ما داموا هم يرخصون أنفسهم إلى أدنى درجة، فلن يكون مطلوباً منه الاعتذار أو الأسف على ما سببه من أزماتٍ ومصائبٍ لبلادهم، إذا هم لم يشفقوا على بلدانهم وشعوبهم، فلن يفعل الأسد، ما دام شرط تبرئته من الجرائم يتناسب عكساً مع تحويل الآخرين أنفسهم المسئولية عن جرائم ارتكبها الأسد وعصابته.

والحديث هنا طبعاً عن الجزء البسيط المسموح لنا بمشاهدته والاطلاع عليه، أي زيارات وفود برلمانية وحزبية ونقابية. وفي الغالب، لا تملك هذه الوفود صلاحيات كثيرة، ولا تتعاطى معها مؤسسات نظام الأسد وأجهزتها بجدية، باستثناء توظيفها في الدعاية الموجهة لإحباط السوريين، وإخبارهم أن النظام نجا من السقوط، وهذا هم العرب (العربيان حسب وصف إعلام النظام)، يتلقاً طلباً رضاه وسؤاله المغفرة، في حين أن هناك قنوات أخرى، أدهى وأشد خطراً، الاستخباراتية والدبلوماسية، وأغلبها ظل عاملاً ولم تقطع الاتصالات عبرها طوال فترة الأزمة، حيث تجري ترتيبات وصفقات وبيع وشراء، تجعل ما يحصل من خلال الوفود، ويشاهده الجمهور، ألعابً أطفال.

يقيم نظام الأسد الأنظمة العربية إجمالاً بأنها متخلفة على الصعد الاستخباراتية والدبلوماسية، وغير مستقلة بقراراتها، وقد كرر الأسد هذا الأمر في أكثر من لقاء و مقابلة، فهو يعتقد أن إقناع أميركا وقبولها به أجدى وأوفر جهداً، لأن أميركا ستتكلف من تلقاء نفسها بإصدار الأوامر لـ"أتباعها" أو لـ"جماعتها" بقبول الأسد، المهم فقط الوصول إلى أميركا والتفاوض معها، وما عداها سهل و يأتي أتوماتيكياً. وكان الأسد يعتقد أن الأنظمة العربية رخوة تخاف من أي تهديد، ومن التلميح بإمكانية إرسال سيارة مفخخة حتى ترضخ وتلين.

وتحمّل قناعة لدى نظام الأسد، كانت تدهشنا، نحن السوريين، أن العرب، وتحديداً الخليجيين منهم، سيبنون كل حجر تم تدميره في سورية. يقولون ذلك بثقةٍ مفرطة، على الرغم من العداء الظاهري الصارخ، وإنّه يصعب تفسير حقيقة من أين جاءوا بهذه الثقة، إلا أن ذلك يفسّر، بدرجة كبيرة، نظرة نظام الأسد إلى العرب وتصوراته المسبقة عنهم، وأنه عندما يتتجّح بقوميته وعروبيته، فلا يعني ذلك تعصّبه لهم بقدر ما يعني تميّزه عن بقية العرب، بحيث يتصرّر العروبة هيكلًا يقف على رأسه، والباقي مجرد قاعدة مهمتها حمل هذا الهيكل وإنسانه، تماماً كما اخترع حافظ الأسد فكرة أن حزب البعث هو القائد للدولة والمجتمع، بحيث صارت الدولة والمجتمع والحزب خدماً للقائد المفدى.

لذلك كلّه، يبدو بشار الأسد مطمئناً لعودة العرب إلى حضنه، وهو فقط ينتظر منهم تدبير إخراج هذه العودة، شرط أن يدفعوا ثمنها، ويجرّوا تسوية أوضاع معه، يتعهدوا بـألا يعيدوا فعلتهم السابقة، لا بالتعاطف إعلامياً مع ضحاياه السوريين، ولا إيواء واستقبال من شرّدهم. لكن هل يثبت العرب أنهم خلاف ما يظن ويعتقد الأسد بهم، وأنهم هذه المرة عقلوها جيداً، وباتوا موقنين أن الأسد لا حضن له، ولن يكون له ظهر ولا حيّثية، بعد أن أصبح ريشةً تتفاوزها مساومات اللاعبين الكبار، وأن المستقبل يلفظه، ومن الأجدى البحث عن حضن سواه؟

المصادر:

العربي الجديد